

الفصل الثاني  
فترة تأسيس الإمارة

## ١ - في سبيل استقرار سياسي :

تمثل هذه الفترة في عهد عبد الرحمن الداخل وابنه هشام وحفيده الحكم<sup>(١)</sup> وأهم ما تمتاز به من الناحية السياسية ، أنها كانت فترة علاج لكثير من الأمراض التي عاناها الحكم الأندلسي في فترة الولاة ، فقد وفد عبد الرحمن الداخل على الأندلس ، وبها القبائل العربية المتنازعة على السلطان . وبها أيضاً جماعات البربر الناقمة على العرب الاستئثار بالأمر ، وبالإضافة إلى العرب ومنازعاتهم والبربر ونقماتهم ، كان يوجد المسيحيون اللانثون بالمناطق الشمالية من شبه الجزيرة ، ثم الفرنج المتربصون فيما وراء البرانس . وكان هؤلاء وأولئك يتحفزون لمطاردة المسلمين لأنهم - في زعمهم - يمثلون خطراً لا على إسبانيا وحدها بل على أوروبا كلها .

من أجل هذا قضى عبد الرحمن الداخل كل سنى حكمه تقريباً في كفاح داخلي وجهاد خارجي ؛ فقلل من شأن الاستقراطية العربية باستخدام غير العرب واصطناع الموالي<sup>(٢)</sup> ، وقضى على الزعامة القبلية بالتخلص من كل من تحدته نفسه بالثورة أو التمرد ، وحاول ما استطاع أن يؤمن حدود الدولة الإسلامية في الأندلس ضد مسيحيي الإيبان والفرنج ، بقيادة الجيوش وتسيير الحملات إلى هؤلاء وأولئك .

وفعل هشام بن عبد الرحمن مثل ما فعل أبوه ، وسار الحكم الرّبضيّ سيرة الأب

(١) حكم الداخل من سنة ١٣٨ إلى ١٧٢ هـ (٧٥٥ إلى ٧٨٨ م) .

وحكم هشام من سنة ١٧٢ إلى ١٨٠ هـ (٧٨٨ إلى ٧٩٦ م) .

وحكم الحكم من سنة ١٨٠ إلى ٢٠٦ هـ (٧٩٦ إلى ٨٢٢ م) .

فتكون هذه الفترة من سنة ١٣٨ إلى ٢٠٦ هـ (٧٥٥ إلى ٨٢٢ م)

(٢) انظر : نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٥٦ .

والجد<sup>(١)</sup> ، وكان أشبه بالداخل في الحزم والصرامة والقسوة من أجل تثبيت النظام وتدعيم الحكم . وقصة إخماده لثورة الربض من أوضح الأدلة على طريقته في السياسة ومعالجة الأمور . ومن أوضح الأدلة على طابع سياسة العصر .

وثورة الربض ثورة قام بها سكان الضاحية القرطبية المسماة بهذا الاسم ، وكان أكثرهم من المولدين - أي الإشبان المسلمين - وقد كانت ثورتهم ذات أسباب بعيدة ترجع إلى سحق العامة - وخاصة المولدين - على الأمير الحكم لما اشتهر به من تحجر وعدم مبالاة ، وكان لدعايات الفقهاء أثر كبير في إقناع العامة بالسخط على الأمير .

أما السبب المباشر للثورة فهو مشادة وقعت بين أحد مماليك الحكم وصيقل سيف من العامة ، وقد كان من نتائج تلك المشادة أن قتل الصيقل بيد المملوك؛ فثار العامة، وكان أشدهم هياجاً أهل الربض الجنوبي . الواقع على الضفة الأخرى لنهر الوادي الكبير . وزحف جموع الثوار على القصر الأميري وأحاطوا به من كل ناحية ، وكادوا يقضون على الأمير والإمارة جميعاً ؛ لولا أن تنبه الحكم إلى حيلة فيها ذكاء وفيها قسوة أيضاً ؛ فقد أرسل بعض أعوانه إلى الربض فأشعل فيه النار ، وهنا اضطر الثوار إلى الإسراع إلى ربضهم لإنقاذ أولادهم ونسائهم وذويهم . وانتهم الحكم الفرصة فأمر جنوده بالانقضاض على الثوار وهم في انسحابهم واضطرابهم ، فأمنوا فيهم قتلاً وأسراً ، ثم أمر الحكم بالربض فهدم ، وبالباقيين من أهله فظردوا<sup>(٢)</sup> .

(١) انظر لتصوير كفاح عبد الرحمن وابنه وحفيده : البيان المغرب لابن عذاري ج ٢ ص ٧٢ ما بعدها . وأخبار مجموعة مؤلف مجهول ص ٦٧ وما بعدها .

وانظر أيضاً : Al Bornoz : La Espana musulmana, vol. I, pp. 88 ff.

Levi : Espana musulmana, pp. 67 ff.

(٢) انظر في واقعة الربض : البيان المغرب لابن عذاري ج ١ ص ١١٣ وما بعدها ، ونفع الطيب للمقرى ج ١ ص ١٥٩ ، والمعجب لعبد الرحمن المراكشي ص ١٢ وما بعدها .

Palencia, Historia de la Espana musulmana, pp. 26 ff. وانظر كذلك :

ومن هنا نرى أن تلك الفترة من الناحية السياسية كانت فترة علاج لكثير من أدواء الحكم التي عانتها الأندلس من قبل. وقد كان لهذا العلاج مقتضياته من البر حيناً ومن إسالة الدم حيناً آخر .

وهكذا شهدت تلك الفترة بعض الحروب وأعمال العنف ، ولكنها كانت في سبيل الاستقرار السياسي الذي خلف تقدماً وأمناً ، ولم تكن المسألة مسألة منازعات وحروب تخلف ضياعاً وتعويقاً فقط كالفترة السالفة .

## ٢ - في سبيل مجتمع أندلسي :

كان من أهم ظواهر المجتمع الأندلسي في تلك الفترة ، ضعف العصبية القبلية والمنازعات العنصرية ، ثم اتجاه سكان الأندلس إلى وحدة اجتماعية يصلون إلى ذروتها في عهد الخليفة الناصر. وكان ذلك بفضل جهود عبد الرحمن الداخل ومن حكم من بعده من أبنائه . وقد ذكرنا أنه كسر شوكة الارستقراطية العربية وحد من عصبية القبائل ، بمطاردة الزعماء المناوئين أولاً ، وباستخدام كثير من الموالى وغير العرب ثانياً . وقد عُرِف أن أبنائه ساروا على سنته بل بالغوا فيها حتى كان عدد الموالى والصقالبة في عهد الحكم خمسة آلاف<sup>(١)</sup> .

وكان من أهم ظواهر المجتمع كذلك في تلك الفترة ، ظهور طبقة اجتماعية جديدة أصبح لها كيانها ومكانتها بين طبقات المجتمع الأندلسي ؛ تلك الطبقة هي طبقة المولدين ، التي تتألف من أبناء الإسبان الذين اعتنقوا الإسلام ، وكثروا بمضى الزمن واستمرار الدخول في الدين الجديد . ولا شك أن وجود مثل هذه الطبقة قد زاد من الأثرية المسلمة حينئذ. وصيغ الحياة الإسبانية بصبغة أكثر إسلامية وعروبة .

(١) انظر : المغرب لابن سعيد ج ١ ص ٣٥ .

كذلك كان من أهم المظاهر الاجتماعية في فترة تأسيس الإمارة الأموية ، هذا التقدم الحضارى النسبي الذى خطت نحوه الأندلس ، ممثلاً في أعمال الإنشاء والتعمير والتجميل التى قام بها الداخل وأبناؤه من بعده ، فقد أسس عبد الرحمن مسجد قرطبة الجامع<sup>(١)</sup> ، كما أنشئ في عهده وفي عهد بنيه كثير من المساجد في أقاليم مختلفة من الأندلس . كذلك أنشأ عبد الرحمن الرصافة التى كانت مقر الإمارة بالشمال الغربى من قرطبة ، وأقام سوراً للعاصمة الأندلسية . وغرس بها بعض الحدائق الجميلة ، وجلب أنواعاً من المزروعات المشرقية<sup>(٢)</sup> .

وأخيراً كان من أهم مظاهر المجتمع الأندلسى في تلك الفترة ظهور شخصية المرأة في مجال الفن ؛ فقد استقدم عبد الرحمن الداخل بعض الفانات المشرقيات وأسس لهن بالقصر داراً عرفت بدار المدينيات ؛ لأن أغلبهن كن من المدينة التى اشتهرت بفنون الموسيقى والغناء في تلك السنوات . وكان من هؤلاء الفانات المدينيات اللاتى وضعن بدور الموسيقى العربية في الأندلس : فضل وعلم والعجفاء . كما كان من الفانات اللاتى عرفن في تلك الفتر : قلم ، وأصلها إسبانية من سبي البشكنس . ولكنها أدبت في المدينة ، وعملت بعد ذلك في دار المغنيات مع صواحبها<sup>(٣)</sup> .

وهكذا كان المجتمع الأندلسى في تلك الفترة ، مجتمعاً مستقراً نسبياً ، فهو يحيا أكثر أمناً في ظل حكومة مدعومة . وهو يعيش أكثر وحدة في حى نظام حارب القبلية والعصبية ، وفتح الطريق للأندلسية الحقة . ثم كان المجتمع في تلك الفترة يفتح عينيه على بواكير حضارة ، أراد الأمويون أن يعيدوا بها في الأندلس حضارة فقدوها بالشرق .

(١) انظر في تاريخ هذا المسجد : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٤١ وما بعدها .

(٢) انظر : نفع الطيب للمقرى ج ١ ص ٢٧ . وكتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٣٢

(٣) انظر أخبار هؤلاء الفانات في : نفع الطيب ج ٢ ص ١١٨ ، ١١٩ .

### ٣ - أولية الثقافة الأندلسية :

خطت الأندلس في تلك الفترة أولى الخطوات نحو الثقافة الأندلسية الحقة . وقد دفعت الأندلس عوامل مختلفة ، وساعدتها على الخطوة الأولى في سبيل ثقافتها . وكان من تلك العوامل :

وقد كثير من الأمويين وأنصارهم واللاتنيين بهم على الأندلس<sup>(١)</sup> . وقد كان قدوم هؤلاء ، إما فراراً من العباسيين ، وإما رغبة في الحياة بالإقليم الإسلامي الجديد المعروف بكثرة الخيرات . ولا شك أن كثيراً من هؤلاء الوافدين على الأندلس كانوا على حظ كبير من الثقافة وقدر عظيم من المعرفة ، ولا شك أن حياتهم في الأندلس سبغ ثقافتهم وتشيع معارفهم وتساعد البلاد على أن تخطو في طريق الثقافة .

كذلك كان من أهم العوامل التي دفعت الأندلس إلى الخطو نحو حياتها الثقافية ، رجوع أول فوج من الأندلسيين الدارسين في المشرق ؛ فقد كان هؤلاء بمثابة أعضاء البعثات الذين يتعلمون خارج بلادهم ثم يعودون ليشتبعوا ما تعلموا بين أهليهم وفي أرجاء وطنهم . ومن أمثلة هؤلاء العائدين بعلم المشرق في فترة تأسيس الإمارة : الغازي بن قيس ، الذي سمع من مالك موطأه ، ثم عاد في عهد الداخل فكان مكرماً له وسخياً عليه<sup>(٢)</sup> . كذلك كان من هؤلاء العائدين : أبو موسى الهواري ، وعبد الملك بن حبيب ، ويحيى ابن يحيى اللبثي ، وزيايد بن عبد الرحمن ؛ وكلهم من العلماء الكبار الذين يمثلون الجيل الأول من أهل الثقافة الأندلسية<sup>(٣)</sup> .

(١) من هؤلاء : أبو الأشعث الكلبي الذي كان محدثاً يروي عن أمه عن عائشة . ومنهم جزى بن عبد العزيز أخو عمر بن عبد العزيز . ومنهم عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم الأموي .  
انظر : نفع الطيب ، ج ٢ ص ٧٧ وما بعدها .  
(٢) ابن القوطية : تاريخ انتحاح الأندلس ص ٣٥ .  
(٣) انظر في الراحلين من الأندلسيين إلى المشرق : نفع الطيب المقرئ ج ١ ص ٣٣٦ وما بعدها .

ولن ننسى أن من أهم عوامل دفع الثقافة الأندلسية في تلك الفترة ، ما كان من إنشاء مسجد قرطبة وغيره ؛ فقد كانت المساجد في تلك الآونة بمثابة المدارس والجامعات . وقد كان مسجد قرطبة بالذات هو النواة الحقيقية للجامعة الأندلسية التي أسست في تلك الفترة ، والتي ستستوعب في العصور التالية حتى تكون في القرن العاشر أعظم جامعات إسبانيا بل أعظم جامعات أوروبا .

وقد ظل الحال في تلك الفترة كما كان في الفترة السابقة تقريباً من حيث الاقتصار في الثقافة الأندلسية على العلوم الدينية والعربية ، وإن كان الأمر قد تطور إلى خطو نحو حياة ثقافية حقيقية ، بفضل تلك العوامل السالفة الذكر . فالدراسة في تلك الآونة كانت تدور غالباً حول كتاب الله حفظاً وتفسيراً وقراءات ، وحول سنة الرسول رواية وشرحاً واستنباط أحكام ، ثم حول لغة القرآن والسنة . وما يتصل بها من شعر وأخبار وأدب على وجه العموم .

ولعل من المناسب هنا أن نشير إلى ظاهرة لها شأنها في حياة الأندلسيين الثقافية . تلك الظاهرة هي تحولهم من مذهب الأوزاعي إلى مذهب مالك ، ثم بقاؤهم دائماً على هذا المذهب مع تعصب له يلفت النظر . فقد كان الأندلسيون أول الأمر أوزاعيين<sup>(١)</sup> ، لأن أغلب العرب الداخلين إلى الأندلس كانوا من أهل الشام ، وكان أهل الشام على مذهب الأوزاعي ؛ فكان طبيعياً أن ينتقل الشاميون إلى الأندلس بمذهبهم . فلما جاءت الفترة التي نسوق عنها الحديث - وهي فترة تأسيس الإمارة الأموية - دخل المذهب المالكي إلى الأندلس وكان ذلك في عهد عبد الرحمن الداخل<sup>(٢)</sup> . ثم انتشر في عهد ابنه هشام ، حتى أصبح المذهب الرسمي للدولة أولاً ، والمذهب الغالب الشائع العام بين الناس ثانياً .

(١) انظر : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ج ١ ص ١٨١ .

(٢) انظر : حديث ابن القوطية عن الغازي بن قيس في : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٥ .

والفضل الأكبر في شيوع المذهب المالكي في الأندلس ، يرجع إلى طائفة من العلماء الأندلسيين المالكيين الذين درسوا المذهب في المشرق ، ثم عادوا إلى بلادهم وتمتعوا بنفوذ كبير . مكن لهم من نشر المذهب وإعطائه الطابع الرسمي . وفي مقدمة هؤلاء الفقهاء الذين مكثوا للمذهب المالكي : يحيى بن يحيى الليثي الذي درس على مالك نفسه ، وكان بعد ذلك من خاصة هشام بن عبد الرحمن الداخل .

على أن من أهم العوامل التي حملت الأندلسيين على الإعجاب بالمذهب المالكي والتمسك به والتعصب له ، موافقته لطبيعتهم العقلية ؛ فهو مذهب يعتمد على النص ، ولا يفسح المجال كثيراً للعقل ، وهو مذهب يكره التفريع والتفلسف والمنطق ، وما أشبه ذلك مما شاع في المذهب الحنفي مثلاً . ومن هنا وافق المذهب المالكي طبيعة الأندلسيين النافرين من التفريع ، المبعضين للتفلسف ، الكارهين للمنطقة .

وربما كان لتعصبهم الشديد للمذهب المالكي ، وكراهيتهم للتفريع وتعدد المذاهب ؛ علاقة بما سبق أن قررناه من كونهم كانوا يعانون شبه مركب نقص أمام المشاركة ، وكان هذا يأخذ مظهر التعصب للمذهب الواحد والتمسك بكل ما هو نصي ، كأنهم يريدون بذلك أن يؤكدوا تمسكهم بالدين وبعدهم عن الزيغ وتجنّبهم للشبهات ، وكأن هذا معناه في زعمهم اللاشعوري أنهم متفوقون على المشاركة في الدين برغم بعدهم عن مهده ، وأنهم أكثر محافظة على الإسلام برغم تأييم عن مشرقه .

#### ٤ - أولية الأدب الأندلسي :

أول ما يلاحظ على الحياة الأدبية لتلك الفترة من تاريخ الأندلس ، ظهور أول جيل من الأدباء الأندلسيين الحقيقيين ، ثم يلاحظ أيضاً ظهور بعض أدبيات الأندلس ، كذلك يلاحظ عدم اقتصار الاشتغال بالأدب على الشعب ، بل مشاركة الحكام فيه

أيضاً . وقبل كل هذا يلاحظ ظهور السمات الأولى للأدب الأندلسي ؛ تلك السمات التي سوف تتزايد على مر العصور ، حتى تتم ملامح الأدب الأندلسي بصورة واضحة .

وهكذا تشاهد هذه الفترة أولى خطوات الأندلس نحو أدب أندلسي متميز ؛ ففيها ينشأ أول جيل من أدباء وأدبيات الأندلس ، ولا يصبح الأدب وفقاً على الوافدين من المشرق كما كان الحال من قبل ، وفيها تصاغ النماذج الأدبية الأولى . التي تعد من تراث الأندلس بحق ، وفيها زيادة على ذلك تبدو تلك السمات الأولى ، التي تشكل أول خطوط الملامح الأدبية لهذا الإقليم الخاص . وسوف يتضح ذلك حين نتناول كلا من الجنسين الأدبيين تناولاً مستقلاً .

### أولاً - الشعر :

كان الشعر الأندلسي في تلك الفترة يسير في اتجاه المدرسة المحافظة المشرقية Clasica ولكن مع تميزه بسمات خاصة تشكل أوائل ملامحه منذ نشأته كشعر أندلسي .

#### ( ١ ) الاتجاه المحافظ :

أما مظاهر هذا الاتجاه المحافظ ، فتتمثل في أن الشعر الأندلسي كان يهتم أكثر ما يهتم بالموضوعات التقليدية ، من فخر ومدح وحماسة ، وما إلى ذلك ، ثم في أنه كان يسير على منهج الأقدمين في بناء القصيدة ، وفي تجميع صورها غالباً من عالم البادية ، وتأليف أسلوبها في الأعم من لغة تستوحى الذاكرة والتراث ، أكثر مما تستوحى العصر والواقع .

ولنتأمل مثلاً تلك النماذج :

يقول أبوالمخشي من قصيدة يمدح بها عبد الرحمن الداخل ويصف الرحلة إليه :

امتطيناها سماناً بُدنا فتركناها نضاء بالعنا  
 وذريتي قد تجاوزت بها مهمها ققرأ إلى أهل الندى  
 قاصداً خير مناف كلها ومناف خير من فوق الثرى<sup>(١)</sup>

ويقول أبو المخشى أيضاً من قصيدة في مدح الداخل ، وتمجيد بعض انتصاراته  
 والثناء على بطولة الأمير سليمان ابنه :

وإذا تساءلَ عن مواقع معشر وذويهم طلب الذي لم يُقدِر  
 رشد الخليفة إذ غوا فرماهم بالمؤيدى الجهم والمتأزر<sup>(٢)</sup>  
 وغدا سليمان السباح عليهم كالليث لا يلوى على متعذر  
 غاداهمُ متقنعا في مازق بالموت مرتجس العوارض ممطر<sup>(٣)</sup>  
 أما سليمان السباح فإنه جلى الدجى وأقام ميل الأصعر  
 وهو الذى ورث الندى أهل الندى ونحا مغبة يوم وادى الأحمر  
 بعداً لقتلى بالمجانص<sup>(٤)</sup> أصبحت جيفاً تلوح عظامها لم تقبر  
 فالليل فيها للذئاب فرائس ونهارها وقع لنبش الأنسر  
 أفناهم سيف مبيد طرفه فى قسطلونة بل بوادى الأحمر  
 فلتركبك ما هربت مخافة منه ، فقع يا ابن اللقيطة أوطر<sup>(٥)</sup>

(١) وردت هذه الأبيات فى الإحاطة لابن الخطيب (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٦٧٣ ورقة ٣٥٢).

(٢) المؤيدى : فقية الفرس ، وحاكم المحوس ، والجهم : الغليظ . والمتأزر : المتقوى .

(٣) مرتجس : من ارتجت السماء أى أرددت ، والعوارض : السحب العظيمة .

(٤) المجانص : جمع مجنص ، وهو اسم مكان من جنص أى مات فزعاً .

(٥) وردت هذه الأبيات فى مخطوطة الإحاطة التى سبقت الإشارة إليها .

ويقول الحكم بن هشام مفتخراً ببطولته وقوته وانتصاره في موقعه الربض :

وأبيتُ صدوع الأرض بالسيف راقعا	وقدماً لأمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغورى هل بها اليوم ثغرة	أبادرها مستنضى السيف دارعا
وشافه على الأرض الفضاء جماجماً	كأقحاف شريان الهبيد <sup>(١)</sup> لوامعا
تنسبك أنى لم أكن في قراعهم	بوان ، وأنى كنت بالسيف قارعا
وأنى إذ حادوا جزاعاً من الردى	فلم أكُ ذا حيد من الموت جازعا
حميت ذمارى فانتهبت ذمارهم	ومن لا يحامى ظل خزيان ضارعا
ولا تساقينا سجالا حروبنا	سقيتهمُ سماً من الموت ناقعا
وهل زدت إن وفيهم صاع قرضهم	فوافوا منايأ قدرت ومصارعا
فهاك بلادى إننى قد تركها	مهاداً ولم أترك عليها منازعا <sup>(٢)</sup>

ويقول الحكم أيضاً في تمجيد السيوف وأسلحة القتال :

غناءٌ صليل البيض أشهى إلى الأذن	من اللحن في الأوتار واللهور والرّدن <sup>(٣)</sup>
إذا اختلفت زرق الأسننة والقنا	أرتلك نجوماً يطلّعن من الطعن
بها يهتدى السارى وينكشف الدجى	وتستشعر الدنيا لباساً من الأمن <sup>(٤)</sup>

فتأمل أمثال هذه النماذج يؤكد أن هذا الشعر يسير على خطى المدرسة المشرقية المحافظة ؛ من حيث بناء القصيدة الذى يميل فى المدح مثلاً إلى البدء بوصف الرحلة

(١) الأتعاف : جمع قحفة ، وهى الفلقة التى تشبه قحف الرأس ، وشريان الهبيد : شجر الخنظل.

(٢) وردت هذه الأبيات فى أخبار مجموعة ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٣) الردن : صوت وقع السلاح بفضه على بعض .

(٤) وردت هذه الأبيات فى : أخبار مجموعة ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

إلى المدوح ، وتحمل المشاق في سبيل الوصول إليه ، وإرهاق الإبل وإتلاف المطايا خلال السفر إلى مكانه ؛ ومن حيث انتزاع الصور والمعاني من البيئة البدوية القليبية ؛ ثم من حيث التعبير بالأسلوب البدوي القديم كذلك ، ذلك الأسلوب الذي يعتمد على الألفاظ الجزلة وإن كانت غريبة ، ويتألف من العبارات الفخمة وإن جاءت خشنة ، وأخيراً من حيث الميل إلى الأبحر الطويلة ذات التفاعيل الكثيرة والقوافي الرنانة . والنماذج المتقدمة واضحة الدلالة على كل تلك الملامح المحافظة .

### ( ب ) عوامل المحافظة :

وقبل أن نأخذ في الحديث عن السمات الخاصة للشعر الأندلسي المحافظ نوضح مسألة يغيب فيها الحق عن كثير من الباحثين ؛ حيث يظنون أن سير الأندلسيين على نهج المحافظ في الشعر كان دائماً بدافع التقليد ، ولم يكن له ما يقتضيه من حياة الأندلسيين . فالحق أن سيرهم على نهج المدرسة المحافظة التي وفدت من المشرق ، كان له ما يبرره من واقع الأندلسيين وظروفهم ، ثم من مثلهم وقيمهم ، وتنبؤهم في ذلك تلك الفترة التي نتحدث عن شعرها مع غيرها من الفترات التاليات . أما واقعهم وظروفهم فقد كانت تتطلب إلى حد كبير هذه الموضوعات التقليدية التي عرف بها الشعر المحافظ ؛ فالفخر والحماسة من لوازم الصراع والغلبة ، وقد عرفت الأندلس كثيراً من ذلك في تلك الفترة وفي غيرها من الفترات . والمدح كذلك من لوازم البيئة العربية القديمة ، وقد كانت البيئة الأندلسية تنطبع - إلى حد كبير - بالطابع العربي . وخاصة حين كان حكامها يدعمون حكمهم ويقوون سلطانهم ؛ فهم يتخذون من الشعر أداة ترويح ووسيلة دعابة ، وهم قبل ذلك عرب الأمزجة ، يهشون للمدح وينسبون للثناء . والغزل كذلك كان من لوازم البيئة العربية القديمة ، ومظهراً من مظاهرها الرئيسية وخاصة في أوساط الفرسان . وقد عرفت الأندلس الفروسة منذ سنيها الأولى . ومن هنا رأينا شاعراً

كالحكم بن هشام يميل إلى الغزل ، وإلى المهالك منه بنوع خاص . وليس ذلك بغريب عليه كفارس ؛ فشأن الفرسان أن يظهروا أقوياء أشداء في ميادين الحرب ، وضعفاء مستكينين في ميادين الحب .

وهكذا يمكن أن يقال في باقي الأغراض التقليدية التي عالجها الشعر الأندلسي المحافظ ؛ فكلها يمكن اعتباره من مقتضيات واقع الأندلسيين وظروفهم

أما الأسلوب المحافظ الذي تناول به الشعراء الأندلسيون تلك الموضوعات التقليدية . فله تبريره من مثل الأندلسيين وقيمهم ؛ ذلك أن العرب كانوا ينتقلون إلى أى إقليم جديد ، وفي مخيلاتهم عالم مثالي ، هو ذلك العالم الذى عاش فيه آباؤهم الأقدمون ، حيث الصحراء والنوق ، والبان والكثبان ، والجآذر والآرام ، إلى آخر هذه الخطوط والألوان التي تؤلف لوحة البادية ، عالم العرب المثالي الأسطوري . وكان أبناء العرب يعتقدون أن خير أدب هو ما كتب آباؤهم في عالمهم ذاك المثالي الأسطوري ، وأن قصارى الأديب بعد ذلك أن يأتي بما يشبه نتاج هؤلاء الرواد الأول . ومن هنا كانوا في الأندلس يستلهمون هذا العالم المثالي الذى يتخيلونه عالم آباؤهم وأجدادهم ، كما كانوا يحاكون هذه النماذج التي جادت بها قرائح الآباء والأجداد .

وشبيه بهذا ما فعله الأوربيون في العصر « الكلاسي » حين راحوا يستلهمون العالم المثالي اليوناني والروماني ، ويسرون على النماذج التي رسمها أسلافهم اليونانيون والرومانيون ، وذلك برغم اختلاف العصور والبيئات والناس جميعاً . وربما كان أكثر شبيهاً بما فعل المسلمون في الأندلس ، ذلك الذى كان من أدباء أمريكا اللاتينية ، حين استوحوا الأدب الإسباني التقليدي . باعتباره أدب عالمهم الأسطوري المثالي ، حتى لو جرد هذا الأدب الأمريكي اللاتيني من كل ما فيه من رواسب إسبانية لم يبق منه شيء ذو قيمة<sup>(١)</sup> .

Emilio Garcia Gomez, Poemas arabigo-andaluces, pp. 19 ff.

(١) انظر :

وانظر : الشعر الأندلسي ( وهو ترجمة المصدر السابق قام بها الدكتور حسين مؤنس ) ص ٧ - ٨ - .

هذا هو تعليل ما كان للإندلسيين في فترة تأسيس الإمارة وفي غيرها من اتجاه محافظ في الشعر . وسوف تكون لهم اتجاهات أخرى ، إن لم تظهر في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الأندلس ، فسوف تظهر في فترات تاليات ، نتيجة لظروف لم تتحقق بعد

### ( ج ) السمات الخاصة :

أما السمات الخاصة التي تميز ملامح الشعر الأندلسي وتجعله ذا شخصية مستقلة ، بحيث لا نعد الأندلسيين مقلدين للمشاركة تقليداً تخفى وراءه شخصيتهم ، ولا تبدو معه خصائص مميزة لشعرهم ؛ فقد ظهر بعضها منذ فترة تأسيس الإمارة . وسيظهر البعض الآخر في فترات أخرى . والذي يعيننا الآن هو تلك السمات الأولى التي ظهرت في الفترة التي نسوق عنها الحديث ، وتلك السمات هي :

### التجديد الموضوعي

ونعني بذلك ، طرق بعض الموضوعات الجديدة أو تناول بعض التجارب التي لم تتناول من قبل . وأوضح مثل على هذه الخاصة . تلك القطعة الشعرية التي عالج الشاعر أبو المخشبي فيها تجربة فقدان البصر . وفيها يقول :

خضعتُ أم بناتي للعدا	إذ قضى الله بأمر فضى
ورأت أعمى ضريراً إنما	مشيه في الأرض لمس بالعصا
فبكت وجداً وقالت قولة	وهي حرى بلغت منى المدى
فقزّادى قرح من قولها	ما من الأدواء داء كالعمى
وإذا نال العمى ذا بصر	كان حياً مثل ميت قد ثوى
وكأن الناعم المسرور لم	يك مسروراً إذا لاقى الردى

أبصرتُ مستبدلاً من طرفه      قائداً يسعى به حيث سعى  
 بالعصا إن لم يقده قائد      وسؤالَ الناس يمشى إن مشى  
 وإذا ركبٌ دنوا كان لهم      هو جَلالٌ في المهمة الخرق الصَوَى<sup>(١)</sup>  
 لم يزل في كل مخشى السرى      يصطلي الحرب ويحتاب الدجى<sup>(٢)</sup>

فهذا الموضوع جديد ، لم يطرقه شاعر قبل أبي المخشى فيما نعلم<sup>(٣)</sup> . . . وتأملُ  
 الطريقة التي عالج بها أبو المخشى هذه التجربة ، يعطينا السمة الثانية من سمات الشعر  
 الأندلسي ، وهي :

### التجويد الفني

ونعني بذلك محاولة الأداء بطريقة أجود مما ألف السابقون . وللأندلسيين وسائل  
 مختلفة إلى هذا التجويد ، بعضها يتعلق بالمضمون ، وبعضها يتصل بالشكل . وهذه  
 السمة الفنية التي بدت في شعرهم منذ نشأته ، كانت دائماً من أوضح خصائص  
 الشعر الأندلسي في كل العصور ، وإن أخذت مظاهر مختلفة من عصر إلى عصر ،  
 ومن شاعر إلى آخر .

(١) الهوجل : البطلء الثقيل . والمهمه : المغاظة . والخرق : القفر . والصوى : جنج صوة وهي ما غلظ  
 وارتفع عن الأرض .

(٢) وردت هذه الأبيات في كتاب الإحاطة لابن الخطيب (وهو مخطوط بالإسكوريال رقم ١٦٧٣  
 ورقة ٣٥١ - ٣٥٢) .

(٣) ذكر بعض الشعراء المشاهدة الأقدمين عمائم ، ولكن ذلك لا يعتبر تناولا للتجربة ولا طرقا للموضوع  
 قبل أبي المخشى ، لأن ذكر المعنى على نحو ما جاء عندهم ، إنما هو ذكر إخباري عرضي مقتضب ، لا شيء  
 فيه من تصوير لحظة أو وصف لمتحن . ومن هذا قول الشاعر الجاهلي ، الأسود بن يعفر النهشلي في قصيدته الدالية :

ومن الحوادث لا أبالك أننى      ضربت عل الأرض بالأسداد  
 لا أهدى فيها لموقع تامة      بين العراق وبين أرض مراد

انظر : المفضليات للفسى ج ٢ ص ١٦ ، ١٨ .

فإذا تأملنا أبيات أبي المخشى ، وجدناه يستعمل التعبير الموحى بطريقة فنية بارعة ؛ فهو يتحدث عن محنته حين فقد بصره . ولكنه لا يعبر عن ذلك تعبيراً مباشراً أو مبالغاً ، وإنما يعبر تعبيراً إيحائياً بسيطاً مؤثراً غاية التأثير . وذلك حيث ذكر زوجته وخضوعها للأعداء بسبب فقدان عائلها لنور عينيه . ولم يكتف الشاعر بذكر الزوجة ، ولم يذكر اسمها كما يفعل الشعراء التقليديون غالباً ؛ وإنما ذكر أنها أم بناته . وذلك ليشير إلى أنه ذو بنات ، وأن الزوجة والبنات جميعاً قد خضعن للعدا وأصبحن في حال من الذل تستدر الدعم . ثم ذكر في آخر البيت أن ذلك كان منذ قضى الله بأمر فضى هذا الأمر . فالشاعر أيضاً لجأ إلى الإيحاء بذكر القضاء ومضى هذا القضاء ، وصور في عبارته نفس السرعة التي يقع بها المقضى ، فكان موفقاً في تصوير المحنة كما كان موفقاً في نقل الإحساس بها .

خضعتُ أم بناتي للعدا إذ قضى الله بأمر فضى

وراح الشاعر بعد ذلك يذكر ما كان لزوجته من بكاء ووجد ؛ وما كان من قول أطلقته وهى حرى فبلغ من الشاعر المدى ؛ حتى قرح فؤاده . وذلك حين قالت « ما من الأدواء داء كالعمى »

ثم أخذ الشاعر يجسم محنة فقدان البصر ؛ فيجعل من يصاب بها « حيا مثل ميت قد نوى » ويقرر أنه بمحنته ينسى كل ما كان له قبل من نعيم وسرور سابقين .

وكان الناعم المسرور لم يك مسروراً إذا لاقى الردى

وبعد ذلك يصور الشاعر الضرير في حالاته المختلفة ويبرزه في أوضاعه المتعدد ؛ حين يكون « مستبدلاً من طرفه قائداً يسعى به حيث سعى » وحين يسير « بالعصى إن لم يقده قائد » وحين يكون حاله « سؤال الناس إن مشى » بلا قائد .

ولا يكتفى الشاعر بتلك الأوصاف التي تصور الضرير حين يكون وحده، وإنما يأبى

إلا أن يصوره حين يكون في جماعة ؛ فيجعله معوق الركب الداني ومبسط المشرفين على غايتهم ؛ حتى لكانهم به في صحراء متفجرة تعلق فيها الحجارة وتغلاظ .

وإذا ركب دنوا كان لهم هوجلا في المهمة الخرق الصوى

وأخيراً يتحم الشاعر وصف حال الضرير بتصوير عالمه النفسى المليء بالمخاوف ، المتكاثف بالظلمات ، فيجمع بذلك التصوير النفسى إلى التصوير الحسى ؛ حيث يقول :

لم يزل في كل مخشى السرى يصطلى الحرب ويحتاب الدجى

وإذا تأملنا هذا النص نفسه من جهة ما يثيره فينا أو ينقله إلينا ؛ أدركنا السمة

الثالثة من سمات الشعر الأندلسى الخاصة وهى :

### التركيز العاطفى :

ونعنى بذلك أن العاطفة تتضح فى العمل الشعرى ، حتى لنوشك أن تكون أبرز عناصره . ولنترك النص السابق برغم وضوح تلك السمة فيه . ولنأخذ لذلك مثلاً ، أبيات عبد الرحمن الداخل فى الحديث عن نخلة رآها بالرصافة ، وفيها يقول :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة	تناءت بأرض الغرب عن وطن النخل
فقلت شبيهى فى التغريب والنوى	وطول التناى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة	فثلثك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن فى المنتأى الذى	يسح ويستمرى السماكين بالوبل <sup>(١)</sup>

فعبد الرحمن فى هذه الأبيات يتناول موضوعاً تقليدياً ، وهو الوصف ، ولكنه يلح على الجانب العاطفى فيبرزه بحيث يكاد يخفى كل ما سواه من جوانب . فهو لم يصف

(١- ) انظر هذه الأبيات فى : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٠ ، وفى : نفع الطيب ج ٢ ص ٧٦ .

النخلة في طوطها ولا في لونها ولا ثمرها ، ولم يتخيلها مارداً ذا شعر طويل ، ولا شيخاً ذا قوام هزيل ؛ وإنما ترك ذلك كله ليصف النخلة بأوصاف عاطفية ويصورها بصورة نفسية . فیرسمها وقد « تناءت بأرض الغرب عن وطن النخل » ويعقد بينها وبينه شبيهاً في التغريب والنوى وطول التناهي عن البنين والأهل ، ويصفها بغربة المنشأ ومشابهة الشاعر في المنأى البعيد والمهجر القصي . وأخيراً يدعو لها بالسقيا ، فيطلب أن تجودها غوادی المزن « في المنتأى الذي يسح ويستمرى الساكين بالوبل » ..

وهكذا جعل من النخلة إنساناً حياً ، يغترب وينأى عن الوطن ويبعد عن الأهل ، وأوجد بينه وبينها مشاركة وجدانية وعلاقة نفسية جعلته يخاطبها في حنو ویناجيها في عطف . وكل ذلك يجعل العنصر العاطفي أبرز عناصر المضمون الشعري لهذه الأبيات .

ومثل هذا النموذج قول عبد الرحمن أيضاً :

أيها الراكب الميمم أرضي      أقر من بعضى السلام لبعضي  
 إن جسمي كما تراه بأرض      وفؤادي ومالكه بأرض  
 قدر البين بيننا فافترقنا      وطوى البين عن جفوني غمضي  
 قد قضى الله بالعباد علينا      فعسى باقربنا سوف يقضى<sup>(١)</sup>

فأوضح ما في هذا الشعر هو عنصر العاطفة . ولم يأت ذلك من كون الموضوع موضوعاً عاطفياً بطبعه ؛ بل جاء من تغليب الشاعر للجانب العاطفي على كل الجوانب ، بحيث أصبح كل هم أن يوضح هذا الجانب وينقله إلى غيره ما استطاع تفلاقياً . ومن هنا جعل سلامه مبعوثاً من بعضه إلى بعضه الآخر ، وفسر ذلك بأنه مقسم بين الأندلس والمشرق ؛ فجسمه هنا ، وفؤاده ومالكه هناك . ثم ذكر أن البعاد قدر بين هذا القسم

(١) انظر هذه الأبيات في البيان المغرب ج ٢ ص ٨٩ . وفي نفع الطيب ج ٢ ص ٦٨ .

وذاك ، فكان الفراق وكان السهاد وطى الغمض عن الجفون . وقرر أخيراً أن ذلك كان قضاء الله بالبعاد ، ودعاه أن يقضى بعد ذلك باللقاء .

ولا شك أن هذه الطريقة فى تناول التجربة بالإضافة إلى صدقها وطبيعتها صاحبها ، جعلت أبرز شئ فى الشعر هو عنصر العاطفة .

وهكذا نرى أن الشعر الأندلسى فى فترة تأسيس الإمارة برغم كون ملامحه العامة هى ملامح الشعر المشرقى المحافظ ؛ قد كانت له سمات خاصة ، صنعت الملامح الأولى للشعر الأندلسى المتميز ، ذلك أن تلك السمات التى بدت فى تلك الفترة من طرق بعض الموضوعات الجديدة ، وميل إلى التجويد ، وغلبة للجانب العاطفى ؛ لن تكون فقط خصائص الشعر الأندلسى التى تميزه عن نظيره المشرق ، فهناك سمات ستظهر فى عصور تالية نتيجة لظروف مختلفة . وسوف نوضح كل ذلك فى حينه إن شاء الله . وحسبنا الآن ، تلك السمات الثلاث التى شكلت ملامح شعر الأندلس بعض التشكيل ، حتى فى تلك الفترة المبكرة من تاريخه .

### ( د ) الشعراء :

شعراء هذه الفترة عديدون . وأكثرهم أندلسيون مولداً ومنشأ وثقافة ، وأقلهم أندلسيون حياة وتأثراً ونتاجاً ، ثم إن بعضهم قد كثرت أخباره لكونه أميراً أو حاكماً ، وقد كان التاريخ يعنى أكثر بالأمراء والحاكمين ، على أن بعضهم الآخر قد قلت أخباره لكونه لم يتمتع بإمارة ولا بحكم ، وإنما كان من أبناء الشعب ، وقد كان التاريخ — مع الأسف الشديد — لا يعنى كثيراً بأخبار أبناء الشعب .

وسوف نعرض لبعض شعراء تلك الفترة ، أو لمن وصلتنا بعض أشعارهم وأخبارهم . وليس علينا إن أوجزنا الحديث عن بعض هؤلاء الشعراء وأطنبنا فى البعض الآخر ؛ فالمسئول عن ذلك هم المؤرخون الأقدمون وعنايتهم بالحاكمين دون المحكومين .

## عبد الرحمن الداخل :

هو عبد الرحمن<sup>(١)</sup> بن معاوية بن هاشم بن عبد الملك . ولد في إحدى قرى دمشق سنة ١١٣ هـ . مات أبوه ، وتركه صغيراً فكفله جده هشام . ثم لما كان في نحو العشرين من عمره وحلت النكبة بيني أمية ، وقام على أنقاضهم بنو العباس ؛ كان عبد الرحمن قد فر بأهله وولده إلى ناحية الفرات ، ونزل بقرية قرب النهر واختفى بها عن أعين العباسيين . وفي ذلك وفيما كان لعبد الرحمن من فرار إلى المغرب يقول : « وإنى لجالس يوماً في قرية على شط الفرات ، في ظلمة بيت تواريت فيه لرمد كان بي ، وابني سليمان يلعب أمامي ؛ إذ دخل الصبي فرعاً باكياً فأهوى إلى حجري ، فجعلت أدفعه لما كان بي ، ويأبى إلا التعلق بي ، وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفرع . فخرجت لأنظر ، فإذا بالروح قد نزل بالقرية ، ونظرت فإذا بالرايات السود عليها منحة . وأخ لي حدث السن كان معي يشتد هارباً ويقول لي النجاة يا أخى فهذه رايات المسودة . فضربت يدي إلى دنائير تناولتها ، ونجوت بنفسى والصبي أخى معي . وأعلمت أخواني متجهي وأمرتهم أن يلحقنني مولاي بدرأ . وخرجت فكمنت في موضع ناء عن القرية . فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار فلم تجد أثراً . ومضيت ولحقتي بدر فأتيت رجلاً من معارف بشط الفرات ، وأمرته أن يبتاع لي دواب وما يصلح لسفري ، فدل عليّ عبدٌ سوء له ، فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا ، فسبحت حائناً لنفسي ، وسبح الغلام أخى ، فنادانا القوم من الشط : ارجعا لا بأس عليكما . فلما قطعت نصف الفرات ، قصر أخى ، فالتفت لأقوى من قلبه ، وإذ هو قد أصغى إليهم وهم يخذعونه عن نفسه ، فناديته : تقتل يا أخى ، إلى إلى . وإذا هو قد اغتر بأمانهم وخشى

(١) انظر ترجمته وبعض أخباره في : البيان المغرب ج ٢ ص ٧١ وما بعدها ، ونفع الطيب ج ١

ص ١٥٤ وما بعدها و ج ٢ ص ٦٢ وما بعدها ، وأخبار مجموعة ص ٥٠ وما بعدها .

الفرق ، فاستعجل الانقلاب نحوهم . وقطعت أنا الفرات . ثم قدموا الصبي أخى الذى صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه ، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه ؛ فاحتملت فيه شكلاً ملائياً مخافة . ومضيت وجهتى أحسب أنى طائر ، فلجأت إلى غيضة فتواريت فيها حتى انقطع الطلب عنى ثم خرجت هارباً أروم المغرب ، حتى وصلت إلى إفريقية . وهناك لحق بى مولاي بدر . . . .» .

وأخيراً تسلل عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، وجمع حوله أنصار بنى أمية ، ونازل يوسف الفهرى والى الأندلس حينئذ ، فهزمه ، ودخل قرطبة سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) وقد تغلب الداخل على كل ما صادفه من صعوبات فى تأسيس دولة بنى أمية فى الأندلس ، واستخدم لذلك الذكاء والحيلة والقسوة أيضاً ؛ حتى لقد قتل بعض قرابته وخاصته فى سبيل تحقيق غايته . ولقد لقبه أبو جعفر المنصور بصقر قریش . وكان لقباً يليق بعبد الرحمن الذى ظل نحو ثلاثة وثلاثين عاماً — هى مدة حكمه — فى جهاد متصل وعمل دائم من أجل تحقيق هدفه الكبير . ثم مات سنة ١٧٢ هـ (٧٨٨) بعد أن حقق أكثر ما كان يريد .

وكان عبد الرحمن شاعراً مجيداً وناثراً بليغاً . وكان شعره يصوره بجوانبه المختلفة ، كإنسان وكمحارب وكسياسى . وقد أوردنا فيما سبق تلك الأبيات التى يتحدث فيها عن نخلة الرصافة ، كما أوردنا الأبيات الأخرى التى يرسل فيها سلامه من بعضه فى الأندلس إلى بعضه فى المشرق . وهذه الأبيات وتلك من روائع شعره الإنسانى .

وهناك نماذج أخرى تمثله كمحارب وكسياسى . وكلها يأخذ طابع الفخر ، لكنه الفخر الصادق ، الذى ينطبق ما فيه من المفاخر على حقيقة المفتخر . ومن ذلك قوله ، وقد حضره بعض رفاقه على صيد غرائيق وقعت إلى جانب معسكره فى إحدى غزواته :

دعنى وصيد وُقِعَ الغرائق<sup>(١)</sup>  
 فإن همى فى اصطیاد المنارق  
 فى نَفَسٍ إن كان أو فى حائق  
 إذا التظت هواجر الطرائق  
 كان لفساعى ظل بند خفاق  
 غنيتُ عن روض وقصر شاهق  
 بالقفر والإیطان<sup>(٢)</sup> فى المرادق  
 فقل لمن نام على النمارق  
 إن الملا شدت بهم طارق  
 فاركب إليها ثبج<sup>(٣)</sup> المضائق  
 أولاً ، فانت أزدل الخلائق<sup>(٤)</sup>

ومن شعره الذى يصوره كذلك كسياسى وكحارب ؛ قوله وقد بلغه أن بعض أعوانه  
 يمن عليه : ويزعم أنه لولاه لما صار عبد الرحمن إلى ما صار إليه من ملك ومجد :

لا يُلْفَ مِمَّنْ علينا قائلٌ لولاي ما ملك الأنام الداخِل  
 سعدي وحزبي والمهند والقنسا ومقادير بلغت وحالٌ حائل  
 إن الملوك مع الزمان كواكب نجم يطالعنا ونجم آفل  
 والحزم كل الحزم ألا يغفلوا أبروم تدبير البرية غافل؟!  
 ويقول قوم سعده لا عقله خير السعادة ما حماها العاقل

(١) جمع غرنوق ، بضم الغين والتون ، وهو طائر مائى ، أو الكركي .

(٢) الإيطان : مصدر أوطن : أى أقام .

(٣) الثبج : وسط الشيء ومعظمه .

(٤) وردت هذه الأبيات فى : أخبار مجموعة ص ١١٧ - ١١٨ .

أبني أمية قد جبرنا صدعكم بالغرب رغما والسعود قبائل  
 ما دام من نسلى إمام قائم فالملك فيكم ثابت متأصل<sup>(١)</sup>  
 وما يصور قصته في كفاحه الميرير وجهاده الطويل ، وإحسانه إلى بني أمية ،  
 قوله وقد وفد عليه بعض أقربائه فنال عطاء لكنه استقله ، واستطال على الداخل بدالة  
 القرابة :

شтан من قام ذا امتعاض مذ قال ما قال واضمحلا  
 ومن غدا مصلتاً لعزم مجرداً للعداة نصلا  
 فجاب قفراً وشق بجرأ ولم يكن في الأتسام كتلا<sup>(٢)</sup>  
 فشاد ملكا وشاد عزاً ومنبراً للخطاب فصلا  
 وجنّد الجنّد حين أودى ومصرّ المصر حين أخلى  
 ثم دعا أهله جميعاً حيث انتأوا أن هلم أهلا  
 فجاء هذا طريد جوع شديد روع يخاف قتلا  
 فنال أمنّا ونال شيعاً<sup>(٣)</sup> ونال مالا ونال أهلا  
 ألم يكن حقّ ذا على ذا أعظم من منعم ومولى<sup>(٤)</sup>

وعبد الرحمن الداخل وإن كان مشرقى المولد والنشأة ، يعتبر أندلسى الحياة والشعر ؛  
 وذلك لأنه وفد على الأندلس في شبابه الباكر ، وتأثر أكثر ما تأثر بما كان في الأندلس  
 من حياة طويلة عريضة مزدحمة بالأحداث والتجارب ، حتى كان كل ما أثر عنه من  
 شعر قد قيل في الأندلس ، ومن هنا جاء شعره جميعاً مرتبطاً بالأندلس متأثراً بها .

(١) وردت هذه الأبيات في نفع الطيب ص ٧٠ ج ٢

(٢) الكل ؛ العيل والثقل ومن لا خير فيه .

(٣) الشيع بسكون الباء كالشيع بفتحها .

(٤) وردت هذه الأبيات بصور مختلفة في نفع الطيب وأخبار مجموعة . وقد أثبتنا الأبيات الستة الأولى

من نفع الطيب ج ٢ ص ٧١ وأثبتنا الثلاثة الباقية من رواية أخرى في المصدر نفسه ص ٨٦ .

وإذا استعرضنا تلك النماذج التي بقيت من شعر عبد الرحمن الداخل ، وجدناها قسمة بين الحنين والفخر ، أما الحنين فصدره تعلق قلب الشاعر بوطنه الأول في المشرق ، حيث ولد ونشأ وكانت لآبائه دولة كبيرة . وأما الفخر فصدره بطولة الشاعر وكفاحه ومغامراته وانتصاراته ؛ فقد استطاع وهو شاب أن يؤسس دولة لبني أمية تعوضهم دولتهم التي فقدوا . ومن هنا كان شعر الداخل يتسم بالصدق ؛ لأنه يعبر عن تجارب قد عاشها الشاعر وانفعل بها . حتى الفخر الذي من شأنه أن يكون مثقلاً بالمبالغات والأكاذيب ، قد كان من عبد الرحمن الداخل فخرأً محتملاً لا تثقله مبالغات أو أكاذيب ؛ لأنه يصور حقيقة الرجل وسيرته .

وهكذا جاء شعر الداخل من حيث الموضوعات والتجارب مصوراً في صدق لجوانب شخصية الرجل ، وهي جوانب ثلاثة ، جانب إنساني يحب ويحن ويرق ويتألم ويبكى ، وجانب سياسى يدبر ويحتال ويجزم ويعرم ، وجانب عسكري يقسو ويعنف ويضرب ويفتك

ويلاحظ كذلك على شعر الداخل أنه يتسم إلى جانب صدق التجارب بفنية التعبير ، وتمثل تلك الفنية في طريقة الشاعر التي يتناول بها الموضوعات ؛ فهو في حديثه عن بعض الأشياء لا يصفها من الخارج ، وإنما يتعمقها ويعيش معها ، ويحلم عليها حياة ترتبط بحياته ، ويبث فيها عواطف تشارك عواطفه . وقد رأينا مثلاً من ذلك في حديثه عن النخلة . وهو في طريقة تناوله للموضوعات يعتمد على الوجدان في الموضوع الذي أساسه الوجدان ، وعلى الإقناع في الموضوع الذي أساسه الفكر . وقد رأينا كيف اعتمد على الوجدان في حديثه عن النخلة وفي تحيته إلى أحبائه في المشرق . ولنتأمل أبياته في الرد على من كان يمن عليه من أعوانه ، لئرى كيف اعتمد على الإقناع فيما أساسه الفكر ، وكيف وضح مثلاً أن سبب مجده ليس هو هذا الذي يمن عليه ، وإنما هو السعد والسيف

والرمح والقدار وسنة الله في تحوّل الأحوال وتداول الحكام ؛ ثم يمضى الشاعر في الإقناع بفكرة كفاءته ومقدرته على صيانة الملك ، فيبين أن قول آخرين بأن السعد وحده هو الذى وصله إلى ما وصل إليه ، وليس العقل والتدبير ؛ إنما هو قول باطل يرد عليه ما كان من حمايته للملك ، تلك الحماية التى لا تكون إلا بالعقل والحكمة والكفاءة ، وهكذا يمضى في الاعتماد على الإقناع في مثل هذا الموضوع الفكرى ، كما مضى في الاعتماد على الوجدان فيما سبق من موضوعات عاطفية .

ويلاحظ كذلك على شعر الداخلى ، أنه يتسم غالباً بسمة التركيز العاطفى التى أسلفنا عنها الحديث ؛ فهو فيما يتناول من موضوعات يركز على العاطفة محاولاً التأثير بها فيها ما أمكن . وتستوى في ذلك الموضوعات التى أساسها العاطفة والموضوعات التى أساسها الفكر . وقد اتضح تركيزه العاطفى في حديثه عن النخلة وتحيته لإحبابه في المشرق . فإذا ما تأملنا أبياته الأخرى التى أساسها الفكر والاعتماد على الإقناع ، وهى أبياته في الرد على من يمن عليه ؛ وجدنا العاطفة كذلك تشيع فيها جواً دافئاً يخفف من برودة الفخر ويصقل من خشونته . فالشاعر في تلك الأبيات يذكر الحظ والقدر وتحوّل الأحوال ، ويصور الحكام نجومياً تتعاقب ، فيشرق نجم ليغيب آخر . وكل ذلك مما يشيع في القصيدة هذا الجحوظ العاطفى الدافئ الرقيق ، ويبعدها عن أن تكون مجرد حجج وبراهين ووسائل إقناع .

وأخيراً يلاحظ على شعر الداخلى أن لغته تميل غالباً إلى السلاسة والروعة ، وتجانب التعقيد والغموض والغريب .

## أبو المخشي :

هو عاصم بن زيد العبادي ، ويتصل نسبه بالعباد نصارى الحيرة<sup>(١)</sup> . وكان والده من جند الشام الذين وفدوا على الأندلس في فترة الولاة ، وكان قد نزل مع جند دمشق بمنطقة البيرة . فنشأ أبو المخشي ببلدة شوش ، واتجه إلى قرص الشعر ، وما زال ينبغ فيه حتى صار من ألمع شعراء عصره .

ولكن أبا المخشي كان ذا بذاء زائد يتسرع به من لا يوافقه من الناس ، وكان ذا هجاء يمس الحرم ويتناول الأعراض أحياناً . وكان الشعراء بدورهم يجردون في أصله النصراني البعيد مغزماً يعبرونه به<sup>(٢)</sup> .

وكان أول الأمر كثير المدح لسليمان بن عبد الرحمن الداخل ، حتى ليوشك أن ينقطع له . وقد ذكر في إحدى مدائحه بيتاً من الشعر اعتبره هشام بن عبد الرحمن الداخل تعريضاً به . وهو هذا البيت :

وليسوا مثل من إن سبيل عرفنا يقلب مقلة فيها اعورار<sup>(٣)</sup>

وسبب اعتبار هذا البيت تعريضاً بهشام . أنه كان أحول ، فاغتاظ من أبي المخشي ، وخاصة لما عرف عنه من هجائه الذي يمس الحرم ، ولما اشتهر به من مدح سليمان دون هشام ، فاستدعاه إلى مدينة ماردة - وكان هشام حينئذ والياً في حياة أبيه - فخرج إليه أبو المخشي من قرطبة طامعاً في عطائه . فلما دخل عليه قال له : « يا أبا المخشي ،

(١) وردت أخباره في : المغرب لابن سعيد ج ٢ ص ١٢٣ ، ١٢٤ ، وبنو المقتسب لحميبي ص ٣٧٧ ، وتاريخ انتصاح الأندلس لابن القوطية ص ٣٥ ، ٣٦ ، والإحاطة لابن الخطيب (مخطوطة بالإسكوريال رقم ١٦٧٣ ورقة ٣٥١ ، ٣٥٢) .

(٢) انظر حكاية له مع شاعر يسمى ابن هيرة في : المغرب ج ٢ ص ١٢٤ .

(٣) في المغرب : « ليس كمثل من إن سب عرفنا » ج ٢ ص ١٢٤ .

إن المرأة الصالحة التي هوت ابنها ، فقدقتها فأفحشت فيها ، قد أخلصت دعاءها لله في أن ينتقم لها منك ، فاستجاب رجاءها ، وسلطني لأقتصر لها ، ثم أمر به فقطع بعض لسانه وسملت عيناه . وقد عولج من جراحه ، ولكنه عاش بعد ذلك ممثلاً به . فأما لسانه فأنجبر بعد وقت إلا قليلاً ، فاقتدر على الكلام إلا تلعثماً كان يعترضه ، وأما العمى فقد استمر به . فعظم مصابه وكثرت شكواه في أشعاره . ولما بلغ عبد الرحمن الداخل صنيع ابنه هشام بأبي المخشبي ، ساءه الأمر وكتب إلى ابنه يعنفه . ثم قدم الشاعر على عبد الرحمن وأنشده قصيدته التي صدرها بتصوير محنة العمى ، فرق له الأمير وأجازه بألفي دينار وضاعف ديته . ولما صار الأمر إلى هشام بعد أبيه امتشعر الندم مما أصاب الشاعر على يديه ، فترضاه وضاعف ديته كذلك .

وقد اتخذ الشاعر صبيياً كمنشد لشعره بعد أن أعجزته مأساته عن الإنشاد الفصيح .  
وعُمر أبو المخشبي بعد محنته حتى لحق دولة عبد الرحمن الأوسط ، وتوفى قريباً من هذا العهد . وذكر ابن حبان أنه مات في عهد الحكم الربضي (١) .

وقد ذكر الرازي أن أبا المخشبي « كان شاعر الأندلس في حينه ، وأنه كان صاحب المعاني الحسنة والنوادر الكثيرة والقول الغزير » .

ولكن برغم ما عرف عنه من غزارة القول ، لم يصلنا من شعره إلا القليل ، الذي منه تلك الأبيات التي يتحدث فيها عن محنة العمى ، والتي يجعلها مقدمة لقصيدة له في مدح عبد الرحمن الداخل . وقد مضت تلك المقدمة وبعض أبيات أخرى من القصيدة في غير هذا المكان .

ومن القليل الذي بقي من شعره أيضاً ، تلك الأبيات التي يمجّد فيها انتصار الداخل

في بعض المعارك ، ومدحه ويشيد بابنه سليمان بن عبد الرحمن ، وقد مضت تلك الأبيات كذلك في موضع آخر .

ومن أروع شعره الذي وصلنا هذان البيتان اللذان يصوران الهم تصويراً دقيقاً :

وهمٌ ضافني في جوف ليل      كلا موجيها عندي كبيرٌ  
فبتنا والقلوب معلقة      وأجنحة الرياح بنا تطير<sup>(١)</sup>

ثم هذا البيت الذي يصور العيش الممهد والحياة في رفعة وحماية أدق تصوير :

هُمَا مهذا لي العيش حتى كأني      خَفِيَّةٌ زَفٍ بين قادمي نَسِرِ<sup>(٢)</sup>

وأخيراً هذان البيتان اللذان قالهما في آخر حياته ، وفيهما يصور عجزه بعد مأساته وشيخوخته وحياته عالة على زوجته ، تلك العاجزة بدورها ، الباكية لما كان من أمر زوجها وأمرها :

أُمٌ بِنْيَاتي الضعيف حَوِيلها      تعول امرأ مثلي وكان يعولها<sup>(٣)</sup>  
إذا ذكرتُ ما حال بيني وبينها      بكّت تستقبل الدهر ما لا يقيلها

وبما ورد هنا من شعر لأبي الخنثى ، وبما ورد له في مواضع أخرى ، ثم مما ذكروا عنه من أخبار ، نستطيع أن نقول : إن أبا الخنثى كان يمثل الشعر الأندلسي في فترة تأسيس الإمارة أصدق تمثيل ؛ فهو يمثل في سيره في هذا الاتجاه المحافظ ذي الملامح البدوية ، وهو يمثل في ظهور تلك السمات الأندلسية الخاصة من تجديد في بعض الموضوعات ومن تغليب لعنصر العاطفة ، ومن تجويد لطريقة الأداء ؛ فقد وجدنا أبا الخنثى يعالج

(١) ورد هذا البيتان في جنوة المقتبس الحميري ص ٣٨٧ . وضافه : نزل عليه ضيفاً .

(٢) ورد هذا البيت في المصدر السابق .

(٣) ورد هذان البيتان في : تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٣٦ . والحويل : الحول والقدرة .

غالباً الموضوعات التقليدية وخاصة المدح والهجاء ، لكننا رأيناها يعالج تجربة جديدة ،  
وهي تجربة فقدان البصر . وقد وجدناه كذلك يؤثر المنهج التقليدي في بناء القصيدة  
حيث يبدأ مدحه مثلاً بوصف الرحلة وإجهااد المطايا ، وحيث يلتبس صورته ومعانيه  
ولغته غالباً في عالم البادية ، وما عاشت عليه من أفكار وقيم ووسائل تعبير ؛ ولكننا رأيناها  
مع ذلك مجوداً ما أمكن ؛ فهو يحاول أن يأتي بشيء أحسن مما أتى به الأقدمون ، برغم  
تحركه غالباً في فلكهم وسيره في اتجاههم . فامرؤ القيس يقول مثلاً في ليل الهموم :

وليل كعوج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم لبيتلى  
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

ويقول أبوالمخشى :

وهم ضافنى في جوف ليل كلا متوجيها عندى كبير  
فبتنا والقلوب معلقة وأجنحة الرياح بنا تطير

فهو قد ينظر إلى صورة ليل امرئ القيس من بعيد ، لكنه يؤلف صورة أكثر حياة  
وتأزر عناصر من صورة ليل امرئ القيس . وذلك أن الليل عند امرئ القيس موج  
بمخربخى سدوله بأنواع الهموم ، وهو في الوقت نفسه جمل يتمطى بصلبه ويردف  
أعجازاً وينوء بكلكل ، وليس هناك ترابط بين البحر والجمل . أما الليل عند أبي  
المخشى ، فهو بمخربخى موج عظيم ، يحوى همماً في جوفه ، هو بدوره بمخربخى موج عظيم ،  
وبين هذين الموجين تظل القلوب معلقة من الفرع ، وكأن أجنحة الرياح تطير بالهموم .

ومن أوضح أمثلة هذا التجويد في شعر أبي المخشى كذلك قوله :

همماً مهداً لى العيش حتى كأنى خفيفة زف بين قادمى نسر

فلا يخفى ما في هذه الصورة من الدقة والجلدة والشمول والإيجاء ، بحيث تفوق

كثيراً ما قبل من قبل في تمهيد العيش والحماية . فاختيار الشاعر لخفية الزف بخاصة - وهي الريشة الصغيرة من ريش الخواقي التي في مؤخر الجناح - يوحى بالبساطة والخفة والاحتياج الشديد إلى حماية . واختيار القوادم للحماية - وهي الريشات القوية التي تكون في مقدم الجناح - يوحى بالقوة والمنعة . ثم اختيار النسر بالذات لتكون قوادم جناحه هي التي تحمي تلك الريشة الصغيرة ، يوحى بالرفعة والغلبة . وكل هذا مما يشهد بدقة الشاعر وتجويده الفني ؛ فقد قدم صورة حية فيها ما نال من الحماية وتمهيد العيش ، وفيها ما أحرز من الارتفاع في بساطة ويسر ، وفيها بعد ذلك تمجيد من قدّم هذا المعروف ، والإيحاء بقوته وعلو منزلته وشدة بأسه .

وهكذا نرى أن أبا المخشى يمثل الشعر الأندلسي في فترة تأسيس الإمارة أصدق تمثيل ، من حيث اتضاح السمات الأندلسية الخاصة في شعره ، ورغم سيره في الاتجاه المشرقي المحافظ ، الذي كان مسيطراً على الحياة الشعرية في الأندلس حينئذ .

### الحكم بن هشام :

هو أبو العاصم ، الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ؛ ويلقب بالربّضي<sup>(١)</sup> . وقد ولد سنة ١٥٤ هـ . ونشأ في بيت الإمارة الأموية بالأندلس . وولى الأمر بعد موت أبيه هشام سنة ١٨٠ هـ وهو في نحو الخامسة والعشرين من عمره .

وقد عُرف بكثير من التحرر الذي أسخط عليه الفقهاء وأبعده كثيراً عن قلوب الشعب ؛ فقد كان ميالاً إلى اللهو ، مولعاً كثيراً بالصيد ، يؤثر الندماء والشعراء على الفقهاء والعلماء ؛ فأنسوا تصدع مركزهم الذي كان مدعماً في عهد أبيه هشام ، فحنتوا

(١) راجع ترجمته وبعض أخباره في : البيان المغرب ج ٤ ص ٩١ وما بعدها ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٩ وما بعدها ، والمعجب صفحة ١٢ وما بعدها ، وأخبار مجموعة صفحة ١٢٤ وما بعدها .

عليه وألبوا العامة ضده . وكان أكثر الناس تأثراً بهذه الإثارة هؤلاء المولدون الذين يسكنون الرِّبَضَ ، والذين عرفوا بثورتهم الجارحة التي كادت تقضى على الحكم وربما على الإمارة الأموية كذلك .

وقضى الحكم كجده شطراً كبيراً من حكمه في قيادة الجيوش ومنازلة المتمردين . وكان أخطر ما عانى ثورة الربض السالفة الذكر .

وقد كان الحكم فارساً شجاعاً ومغامراً باسلاً . حكوا أنه لما رأى جموع الثائرين تحيط بقصره يوم الربض ، دعا بغالية فتغلل بها ، وبمسك فذره على شعره ؛ فقال له أحد فتياته : أهذا يوم طيب يا سيدي ؟ ! فأنهه وقال : هذا يوم وطنت فيه نفسي على الموت أو الظفر بعدوى ، فأردت أن يُعرف رأس الحكم من بين رعوس من يُقتل معه (١) .

وكان الحكم أديباً مجيداً ، شاعراً وناثراً . وقد سجل أدبه بعض ما كان له من أحداث . وشعره يتردد بين الغزل والحماسة ، ويصوره بهذين الجانبيين اللذين يؤلفان شخصيته كفارس ؛ فهو في غزله رقيق لين خاضع متذل ، وهو في حماسه عنيف أبن متجبر ، شأنه في ذلك شأن كل الفرسان ، الذين يعتبر الخضوع للأحباب والقسوة على الأعداء ، من أهم معالم شخصيتهم .

ومن غزل الحكم الذي يمثل خضوعه في الحب ، قوله عن نفسه :

ظلّ من فرط حبه مملوكاً	ولقد كان قبل ذلك مليكاً
إن بكى أو شكى الهوى زيد ظلماً	وبعاداً يدنى حِمَاماً وشيكاً
تركته جآذر القصر صيباً	مستهاماً على بالصعيد تريكاً

(١) انظر : أخبار مجموعة صفحة ١٣١ .

يجعل الخلد راضياً فوق تُرب للذي يرتضى الحرير أريكا  
هكذا يحسن التذلل بالحر إذا كان في الهوى مملوكاً<sup>(١)</sup>

ومن هذا اللون قوله أيضاً :

قضبٌ من البان ماست فوق كلبان ولّين عنى وقد أزمعن هجراني  
ملكنتي ملكياً ذلت عزائمها في الحب ذل أسير موثق عان  
منّ لي بمغتصبات الروح من بدني يغصبتني في الهوى عزى وسلطاني<sup>(٢)</sup>

أما شعره الحماسي الذي يمثل الجانب العنيف من شخصيته ، فقد مضت بعض نماذجه ، فلا حاجة إلى إعادتها هنا .

والذي تدل عليه القطع الباقية من شعر الحكم ، هو أن شعره كان — إلى جانب تردده بين الغزل والحماسة — يميل إلى شيء من المبالغة ، التي مبعثها شخصية الشاعر وطبعه الفروسي ؛ فهو يبالغ في الضعف حين يتغزل ، ويبالغ في القوة حين يتحمس ، وقد تباعد تلك المبالغة بين الشعر والصدق أحياناً .

ويلاحظ بعد ذلك على شعر الحكم — كما تدل تلك النماذج التي بقيت — أنه كان على حظ غير قليل من الجودة ؛ فقيه يتلاءم الأسلوب مع الموضوع وتنسجم التجربة مع التعبير ، بشكل يدعو إلى الإعجاب . فإذا ما رجعنا إلى نماذجه الغزلية ، وجدنا الرقة في الألفاظ والسلاسة في الأسلوب والرشاقة في الموسيقى ، وإذا ما رجعنا إلى نماذجه الحماسية ، وجدنا العنف في الألفاظ والوعورة في الأسلوب والصخب في الموسيقى .

(١) وردت هذه الأبيات في : البيان المغرب ج ٢ ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٢) وردت هذه الأبيات في : البيان المغرب ج ٢ ص ١١٨ ، ١١٩ .

## عباس بن ناصح :

هو أبو المعرّي عباس بن ناصح الثقفى ، من أهل الجزيرة الخضراء<sup>(١)</sup> وكان قد رحل مع أبيه إلى مصر وتردد على الحجاز والعراق ، ولقى أئمة العلم في تلك البلاد ، فكان على حظ كبير من العلم بالفقه والرواية للشعر . ولما عاد إلى الأندلس ولاه الحكّم قضاء الجزيرة الخضراء مع شدونة .

وكان عباس بن ناصح يتردد على قرطبة فيأخذ عنه أدباؤها ، وتدور بينه وبينهم أحيانا محاورات أدبية طريفة ، يمكن أن تعتبر المحاولات الأولى للنقد الأدبي في الأندلس . وقد اشتهر ابن ناصح بالشعر شهرة غلبت على شهرته كعالم ومؤدب ، وخلف ديوان شعر كان موضع عناية الأندلسيين ودراستهم . ولكن هذا الديوان قد ضاع ولم يبق من شعره إلا القليل . والذي يدل عليه هذا القليل ، بالإضافة إلى ما حكى عن الشاعر من أخبار ، هو أن شعر هذا الشاعر كان يتحرك غالباً في دوائر المدح والحماسة والفخر ، كما كان أحيانا يتناول الزهد . فن أمثلة مدحه قوله في الحكّم الربضى ، وكان قد أغاث الناس في عام مجاعة :

نكيدَ الزمانُ فآمنتُ أيامه أن لن يكون بعصره عسر

ظَلَع<sup>(٢)</sup> الزمان بأزمة فجلى له تلك الكريمة جوده الغمر<sup>(٣)</sup>

ومن أمثلة شعره الحماسي ، قوله مستحثاً للحكم على إغاثة منطقة وادي الحجارة وكان الشاعر قد نزل بها فسمع امرأة تشكو لإهمال الحكم وقسوة الأعداء .

(١) اقرأ بعض أخباره في بنية المتلس للضبى صفحة ٢٧٦ ، وفي نفع الطيب ج١ صفحة ٤٤٥ ، وفي بنية الوعاة للسيوطي صفحة ٢٧٦ ، وفي المغرب لابن سعيد صفحة ٢٥٣ .

(٢) ظلع : ضاق .

(٣) ورد هذان البيتان في : نفع الطيب ج١ ص ١٦١ .

تلملتُ في وادى الحجارة مسهداً      أراعى نجومًا ما يردن تفسيرا  
إليك أبا العاصي نضيتُ مطيبي      تسير بهم سسارياً ومهجراً  
تداركُ نساء العالمين بتنصرة      فإنك أهل أن تغيث وتنصراً<sup>(١)</sup>  
ومن أمثلة شعره الزهدي قوله :

ما خيرُ مدة عيش المرء لو جعلت      كمدة الدهر والأيام تفنيها  
فارغب بنفسك أن ترضى بغير رضى      وابتع نجاتك بالدنيا وما فيها<sup>(٢)</sup>

كذلك يدل القليل الباقي من شعر ابن ناصح ، بالإضافة إلى ما روى عنه من أخبار ، على أن شعره كان غالباً ذا سمات بدوية واضحة ، وأنه كان قليل الصقل كثير الخشونة ؛ ويتمثل ذلك في سداجة بعض الأفكار ، واهتزاز بعض الصور ، وقلق بعض الألفاظ . ولعل مما يرجح هذا التصور من بداوة شعر ابن ناصح الواضحة ، ما يُحكى من أنه وفد مرة على قرطبة وأسمع الشعراء قصيدة له مطلعها :

لعمرك ما البلوى بعار ولا العدم      إذا المرء لم يقدم تقي الله والكرم  
فلما ورد في تلك القصيدة بيت يقول فيه :

تجاف عن الدنيا فما لمعجز      ولا عاجز إلا الذى خُطَّ بالقلم  
قال له يحيى الغزال - وكان إذ ذاك ناشئاً في الشعر- : أيها الشيخ وما يصنع مفعَل مع فاعل ؟ (يعنى معجز مع عاجز) فقال له ابن ناصح : كيف تقول أنت ؟ فقال أقول :

تجاف عن الدنيا فليس لعاجز      ولا حازم إلا الذى خُطَّ بالقلم  
فقال له عباس : والله يا بني لقد طلبها عمك فما وجدها .

(١) وردت هذه الأبيات في المصدر السابق ١٦٠ .

(٢) ورد هذان البيتان في بغية الملتمس ص ٢٧٦ .

ثم ما يروى من أنه أنشد مرة قصيدة جاء فيها قوله :

بقرتُ بطونَ الشعر فاستفرغ الحشا بكفى حتى آب خاويه من بقري

فقال له شاعر يسمى بكر بن عيسى : « أما والله - يا أبا علي - لئن كنت بقرت

الحشا ، لقد سّخت يدك بقره ، وملأتها بدمه . وخبثت نفسك بنته ، وخشمت أنفك بعرفه » فاستحيا عباس وأفحم عن الجواب<sup>(١)</sup> .

### حسانة التميمية :

هي حسانة بنت أبي الحسين الشاعر ، كانت من أهل البيرة<sup>(٢)</sup> ، وقد تأدبت على

أبيها الذي كان أيضاً من الشعراء ، ولما مات لجأت إلى الحكم أمير الأندلس حيثئذ ، وكانت وسيلتها إليه تلك الأبيات :

إني إليك أبا العاصي موجعة <sup>(٣)</sup>	أبا الحسين ، سقته الواكفَ الديمُ
قد كنت أرتع في نعماه عاكفة	فاليوم آوى إلى نعماك يا حكم
أنت الإمام الذي انقاد الأنام له	وملكته مقاليد النهى الأمم
لا شيء أخشى إذا ما كنت لي كنفًا	آوى إليه ولا يعرفون لي العدم
لا زلتَ بالعزة القعساء <sup>(٤)</sup> مرتديًا	حتى تذلل إليك العرب والمعجم <sup>(٥)</sup>

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنته ، وأمر لها بإجراء راتب ، وكتب إلى عامله

على البيرة فجهزها بجهاز حسن . غير أنه لما مات الحكم نالها بعض الضر من عامل

(١) وردت هذه الحكاية والتي قبلها في النسخ ج ١ ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٢) انظر بعض أخبارها في : نفع الطيب ج ١ ص ٤٨٨ .

(٣) موجعة : ناعية .

(٤) القعساء : الثابتة .

(٥) وردت هذه الأبيات في : نفع الطيب ج ٢ ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

بلدها جابر بن لييد : الذي لم يحمر لها أملاكها . ولم ينفذ ما خطه الحكم لها بيده  
في هذا الشأن . فجاءت إلى الأمير الحديد عبد الرحمن الأوسط وأنشدته قصيدة منها :

إلى ذى الندى والمجد سارت ركائبي	على شَحَطٍ <sup>(١)</sup> تصلى بنار الهواجرِ
ليجير صدعى إنه خير جابر	ويمنعني من ذى الظلامه جابر
فلنى وأينامى بقبضة كفه	كذى ريش اضحى في محالب كاسر
جدير لمثلنى أن يقال <sup>(٢)</sup> مروءة	لموت أبى العاصى الذى كان ناصرى
سقاها الحيا لو كان حياً لما اعتدى	على زمان باطش بطش قادر
أيمحو الذى خطه يمناه جابر <sup>(٣)</sup>	لقد سام بالأملاك إحدى الكباثر <sup>(٤)</sup>

فلما فرغت من قصيدتها رق لها . فعزل الوالى وأقرها على أملاكها ، وأمر لها بجائزة ،  
فانصرفت وبعثت إليه بقصيدة منها :

ابنُ المشامين خير الناس ماثرة	وخير منتجع يوماً لروادِ
إن هزَّ يوم الوغى أثناء صعْدته <sup>(٤)</sup>	روى أناييها من صرف فرصاد <sup>(٥)</sup>
قل للإمام : أيا خير الورى نسباً	مقابلا بين آباء وأجداد
جوَدتَ طبعى ولم ترَض الظلامه لى	فهاك فضلَ ثناءٍ رايح غاد
فإنْ أقمتُ فى نعماك عاكفة	وإن رحلت فقد زودتى زادى <sup>(٦)</sup>

وحسانة — فيما نعلم — أولى الشواعر الأندلسيات : وأسبقهن إلى قرص الشعر .

(١) الشحط : اليمد .

(٢) يقال : من أقال عثرته .

(٣) وردت هذه الأبيات فى : نفع الطيب ج ٢ صفحة ٤٣٨ .

(٤) الصدة : القناة المستوية .

(٥) الفرصاد صيغ أحمر . والمراد اللم .

(٦) راجع هذه الأبيات فى : نفع الطيب ج ١ صفحة ٤٢٨ - ٤٢٩ .

وشعرها - كما يبدو - مزيج من الرثاء والشكوى والمدح وطلب العون ، وهو على جانب كبير من النضج الفني ، وفيه بعض تلك السمات الأندلسية المميزة التي سبق أن أشرنا إليها في غير هذا المكان ؛ فهو شعر يتسم بالتجويد الفني وبالتركيز العاطفي . ولنتأمل أبياتها الأولى التي تقدمت بها إلى الحكم بعد موت أبيها ، فسوف نحسها تفيض بالعاطفة الحارة الصادقة . ولننظر أبياتها الأخرى التي أنشدتها عبد الرحمن الأوسط ، فسوف نراها على حظ كبير من التجويد الفني : الذي لا يأتي مصادفة ولا تندُّ به طبيعة شاعر عادي . انظر إلى استخدامها للألفاظ : ولعبها بمادة « جابر » دون تصنع أو افتعال في قولها :

ليجير صدعى إنه خير جابر ويعننى من ذى الظلامه جابر

وانظر إلى الصورة الرائعة التي كأنها لوحة فنية تمثل العدوان والظلم والقهر . في قولها :

فإني وأيتسامى بقبضة كفة كذى ريش اضحى<sup>(١)</sup> في محالب كاسر

وشعر حسنة بعد ذلك يتسم بالأصالة والصدق ؛ ففيه كثير من طبيعة المرأة ، في ضعفها وحاجتها إلى الحماية وبحبها عن الكنف ، وفزعها من القهر ، وفرط إحساسها بالعدوان ، وصراخها في طلب العون وجبر الصدع وإقالة العثرة .

هذه طائفة من شعراء تلك الفترة ، قد أفردناهم بالحديث لما بقي من أخبارهم وأشعارهم . وهناك آخرون غير هؤلاء ، لا يكفي ما ذكر عنهم من أخبار أو ما بقي لهم من شعر للحديث عنهم والتعريف بهم . ومن هؤلاء : بكر بن عيسى ، وأبو الحسين التميمي ، وغريب الطليطلي ، وابن هبيرة .

(١) يقرأ القمل أسمى هنا بهزة وصل ليصح الوزن .

## ثانياً - النثر :

إذا صح أن ينقسم النثر إلى نثر تأليفي ونثر خالص ، على أن يراد بالتأليفي ذلك النثر الذى تصاغ به المعارف الإنسانية المؤلفة فى أسلوب أدبى ، وعلى أن يراد بالخالص ، ذلك النثر الذى لا يراد به التعبير عن تلك المعارف الإنسانية المؤلفة ، وإنما يراد ما سوى المعارف ، كتنقل عاطفة أو تصوير تجربة أو إيصال فكرة وما إلى ذلك ؛ أقول إذا صح ذلك التقسيم ، أمكن القول بأن النثر الأندلسى كان فى فترة تأسيس الإمارة نثراً خالصاً ، حيث كانت الأندلس حتى ذلك الحين لا تعرف النثر التأليفي ؛ لأنه يحتاج إلى مستوى ثقافى لم تكن الأندلس قد وصلته بعد .

وكان هذا النوع من النثر الخالص ، لا يعرف كذلك تلك الفروع الراقية التى نشأت فيما بعد كالفرع القصصى مثلاً ، وإنما كان مقصوراً على تلك الفروع التقليدية ، كالخطب والرسائل والوصايا والمحاورات ، وما أشبه ذلك بما عرف منذ العصر الجاهلى إلى الأموى . وكان اقتصار النثر الأندلسى على تلك الفروع أمراً طبيعياً فى تلك الفترة البكرة من تاريخ الأندلس ؛ فهى الفروع التى كانت تلائم حياة الأندلسيين وتتناسب مع ظروفهم السياسية والاجتماعية والثقافية ، وهى الفروع التى كانت مألوفة فى المشرق فى تلك الآونة . وقد كان المشرق فى ذلك الحين هو المصدر الأول للاتجاهات الثقافية والأدبية .

هذا ما يتعلق بنثر الأندلس فى تلك الفترة من حيث نوعه وفروعه . أما من حيث أسلوبه فيلاحظ بناء على ما بين أيدينا من نصوص ، أنه كان لا يزال نثراً ذا تقاليد عربية خالصة ؛ فهو يتسم بالجزالة المسببة أحياناً لغرابية بعض الألفاظ . كذلك كان يتسم بالجودة المعتمدة على الطبع أولاً والمستخدمه لبعض المحسنات ثانياً . على أن تلك المحسنات وفى مقدمتها السجع ، كانت تأتى بين الحين والحين دون تكلف أو افتعال . كذلك

كان النثر يتسم بالبساطة والتعبير المباشر ، والابتداء بالموضوع دون مقدمة أو تمهيد . وأخيراً كان يتسم بمراعاة المقامات ، فهو موجز في مواطن الإيجاز ، كخطب الحرب ورسائل الإنذار ، وهو مطنّب نوعاً في الوصايا والمنشورات وما أشبه ذلك مما يتطلب بسط القول .

وهكذا نجد النثر الأندلسي في تلك الفترة مشابهاً إلى حد كبير للنثر الذي كان معروفاً في المشرق أيام الدولة الأموية ، حتى يمكن أن يقال : إنه كان كالشعر يسير على الأسلوب الأدبي المحافظ clasico . وإذا أمكن أن يميز الشعر الأندلسي — برغم محافظته — ببعض الخصائص ، فربما كان من المتعذر تمييز خصائص للنثر ، تفرق بينه وبين النثر المشرق ولو بغض التفريق . ولعل السبب في ذلك هو قلة المآثور من نثر تلك الفترة . ولعلنا لو عثرنا على نصوص أكثر ، نستطيع أن نلمح بعض خصائص النثر الأندلسي التي تميزه من النثر المشرق في تلك الحقبة من تاريخه .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان لتلك الفترة نثر تقليدي كما سبق أن قرنا ، وكان لها ناثرون عديدون مثل : فطيس بن عيسى ، وخطاب بن يزيد ، اللذين كانا كاتبين لهشام بن عبد الرحمن ثم لابنه الحكم ، ومثل حجاج العقيلي ، الذي كان كاتباً للحكم<sup>(١)</sup> ، ومثل الداخل ، والرّبضي من أمراء تلك الفترة ؛ فقد كان الأول خطيباً وكاتباً ، وكان الثاني كاتباً وموصياً .

وقد حفظت لنا بعض المراجع نماذج نثرية لتلك الفترة . ولعل من الخير أن نعرض طرفاً من تلك النماذج ، حتى يتضح ما سبق أن قرناه عن حال النثر من حيث فروعه ومن حيث أسلوبه .

فن أمثلة الخطب ، ما قاله عبد الرحمن الداخل لأصحابه يحثهم على القتال يوم

(١) انظر : ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٩١ ، ١٠٣ .

أن خاض المعركة الفاصلة ضد يوسف الفهري ، آخر ولاية الأندلس . قال عبد الرحمن :  
« هذا اليوم هو أسُّ ما يبنى عليه ، إما ذل الدهر وإما عز الدهر . فاصبروا ساعة فيما  
لا تشتهون . تريحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون »<sup>(١)</sup> .

ومن الرسائل ما كتب به عبد الرحمن الداخل إلى خارج عليه يسمى سليمان الأعرابي ،  
وهو قوله : « أما بعد . فدعني من معاريض المعاذير ، والتعسف عن جادة الطريق ،  
لتبمدنَّ يداً إلى الطاعة ، والاعتصام بحبل الجماعة ، أو لأزوين<sup>(٢)</sup> بناها على  
رضف<sup>(٣)</sup> المعصية ، نكالا بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد »<sup>(٤)</sup> .

ومن أمثلة الوصايا ما وجهه الحكم الرضوي إلى ابنه عبد الرحمن ، حين شعر بدنو  
أجله فقال : « إني قد وطدت لك الدنيا ، وذلك لك الأعداء ، وأقمت أود<sup>(٥)</sup> الخلافة ،  
وأمنت عليك الخلاف والمنازعة . فاجر على ما نهجت لك من الطريقة . واعلم أن أولى  
الأمر بك وأوجبها عليك ، حفظ أهلك ثم عشيرتك ثم الذين يلونهم من مواليك وشيعتك .  
فبهم أنزل ثقتك ، وإياهم واس من نقتك ، وعصابتهم استشعر دون المتوثبين إلى  
مراتبهم من عوام رعيتك ، الذين لا يزالون ناقلين على الملوك أفعالهم ، مستقلين لأعبائهم .  
فاحسم عليهم ببسط العدل لكافهم ، واختيار أولى الفضل والسداد لأحكامهم وعمالهم ،  
دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة . وإن رأيت فيمن يرتقى من صنائعك<sup>(٦)</sup> رجلا لم تنهض  
به سابقة ، ويشف بخصلة<sup>(٧)</sup> وتطمح نفسه وهمته ، فأعنه واختبره ، وقدمه واصطنعه .

(١) انظر هذه الخطبة في : نفع الطيب ج ٢ ص ٧٠ .

(٢) زوى الشيء : جمعه وقبضه

(٣) الرضف : الحجارة المحماة .

(٤) هذه الرسالة واردة في : نفع الطيب ج ٢ ص ٦٨ - ٦٩ وفي البيان المغرب ج ٢ ص ٨٦ .

(٥) الأود : الاعوجاج .

(٦) صنائكك : من ربيتهم .

(٧) الخصلة : الفضيلة .

ولا يربك خمول أوله ، فإن أول كل شرف ما ربّيته . ولا تدعن مجازاة المحسن بإحسانه ،  
ومعاقبة المسيء بإساءته ، فإن التزامك لهذين ، ووضعك لهما موضعهما ، يرغب فيك  
ويرهب منك» (١) .

ومن أمثلة المحاورات ما دار بين جندي وعبد الرحمن الداخل ، حيث قال  
الجندي : « يا ابن الخلائف الراشدين . والسادة الأكرمين . إليك فررت ، وبك عدت .  
من زمن ظلوم ، ودهر غشوم . قلل المال ، وكثر العيال ، وشعث الحال ، فصير إلى  
نذاك المآل . وأنت وليّ الحمد والمجد ، والمرجو للرفد » .

فأجابه عبد الرحمن :

« سمعنا مقاتلك ، وقضينا حاجتك ، وأمرنا بعونك على دهرك ، على كرهنا لسوء  
مقامك . فلا تعودون ولا سواك لمثله ، من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة ، والإلحاف  
في الطلبية . وإذا ألم بك خطب أو حزّبك أمر ، فارفعه إلينا في رقعة لا تعدوك ، كما  
نستر عليك خلتك» (٢) ، ونكف شحات العدو عنك ، بعد رفعها إلى مالكك ومالكنا -  
عز وجهه - بإخلاص الدعاء وصدق النية» (٣) .

(١) هذه الوصية واردة في : المقتبس لابن حيان (جزء عن إمارة عبد الرحمن الأوسط ، كان عند  
الأستاذ ليثي بروفسال) .

(٢) الخلة : الحاجة والفقير .

(٣) راجع هذه المحاورات في : نفح الطيب للمتري ج ٢ ص ٦٨ .